إلى رئيس الدولة

للكاتب الباكستاني: أحمد نديم قاسمي.

عندما ولجت المرأة المحل... كان نجيب منهكماً في قراءة أحدث كتاب في الطرائف والمِلحَ... إذ لم يعد لديه ما يشغل باله بعد أن آلت إليه ملكية الدكان الذي كان مخصصاً لخصمه ثم أعيد ثانية له.

وكان ثمة «مشروع» ضحكة توشك أن تفر من فمه المفتوح إثر قراءة إحدى النكات حينما دخلتْ عليه كعادتها... ماسحةً بقسوةٍ أنف رضيعها:

ـ أتوسل إليك! اكتب الخطاب اليوم... ما ذقت البارحة للنوم طعماً... كم أنا بائسة تعسة!

ومن حسن حظها أنه كان يستشعر ذاك النهار نفحة كرم عابرة... ثم إن تلك المرأة قد ساعدت والدته مراراً في طحن القمح والذرة... ورسم لها في خياله صورة أخرى... لم تكن ترتدي فيها تلك الأسمال البالية... ولم يكن شعرها أشعث أغبر كما هي الحال وهي تقف أمامه... وتذكر إلحاحها بأن يكتب لها الخطاب المطلوب... طفقت ترِدُ عليه كل يوم طيلة أسبوع أو ينيف. ولم يكن بدٌّ من تنفيذ رغبتها فاستلّ ورقةً كبيرة وقال لها آمراً: اجلسي!

وافترشت المهد المنسوج من الخيوط وأمطرت الرجل بوابل من الدعوات والابتهالات ثم نزعت الطفل من حضنها فرمت به على أحد جنبيه كما لو كان لفافة من الأسمال... وشرع الصغير في مداعبة الخيوط المنسوجة بيدين متسختين. أما هي فقد اتخذت وضعية أخرى وأمارات الجدية ترتسم على ملامحها وأطبقت كفها في توتر قبل أن تقول له:

openkandil.com

اجعلها موجّهة إلى المسؤول الأكبر بالدولة!

ورفع «نجيب» إليها وجهاً ملؤه الدهشة والتعجب! وأحسَّ بكثير من الأسف لأنه وضع كتاب الطرائف جانباً ليسمع ترَّهات كهذه، على أنّ كفَّ المرأة كانت لا تزال مطبقة بإحكام فيما بدت أجفانها كما لو أنها قد اضمحلّت وتلاشت.

وعَلِقَتْ قدما الطفل في شبكة مهده المنسوج فجأةً فلم يجد بُدّا من البكاء... والتفتت إليه أمه الرؤوم... فبادرت بصفعه على قفاه قبل أن تحمله فتلقي به بقسوة في مهده مجدداً، فبدا باطن ساقيه الداكنتين مبقعاً بخدوش ينزف الدم منها:

ـ أيها الـ «....» لِمَ لمْ تمت هناك... في «دهلي» وظللت مقيدة بك كحظي العاثر! تعساً لك!

ـ ومد الصغير ـ بكل براءة الطفولة شفته السفلي متطلعاً إلى قبلة منها على جبينه كيما ينخرط في بكاء عميق لكن آماله خابت فقد التفتت صوب «نجيب» فما كان منه إلا أن زمّ شفتيه في كدر وطفق يداعب خيوط المهد.

وعوداً على بدء... استأنفت المرأة حديثها:

ـ ليكن خطك واضحاً كيما يتمكن المسؤول من قراءته. اكتب له قائلاً بأنه أثناء تأسيس دولة «الباكستان» كنت في «دهلي» بالهند وكان زوجي نادلاً لأحد أغنياء الهند.. كنت أغسل الأطباق في بيت كبير وكنا في نعمة نحسد عليها... كان لدنيا ثلاثة أطفال أصحاء يقطرون جمالاً... ذات يوم أطلت امرأة حديثة عهد بالمدينة عبر السور وقالت: ـ أولئك هم أطفال السيد يا أخيّه! أليس كذلك؟. وتوقفت قليلاً ثم حملت طفلها ففركت باطن قدميه وبقسوة عادت تمسح أنفه وقالت: لقد كان طفلي هذا جميلاً يوماً... غيرته حياة المخيمّ فأصبح كالح اللون أشعث مغبرا!

وفكر الرجل في أعماله المتراكمة جراء إعادة تخصيص المتجر له... ثم عاد بفكره إلى كتاب الطرائف... عليه إكمال قراءة النصف الآخر... تذكر ذلك كله فقال لها في ضجر... مُسْتَحِثًّا إياها على إنهاء ما بدأته:

ـ فلديك ثلاثة أبناء إذاً؟!.

وعادت تلقي برضيعها في مهده على أن قدميه علقتا بالخيوط كذلك فشرع في البكاء من جديد... وحملته بعنف فألقت به على الأرض.

ونظر المسكين إليها في دهشة فأرخى شفته السفلى ورفعها ثانية في خيبة أمل قبل أن يحبوَ على يديه وركبتيه فيخرج من الغرفة.ولم تأبه الأم به! ظلت تحدق في صمت في أعماق اللاشيء قارضةً أظافرها.

ووضع «نجيب» كتاب النوادر ثانية ثم قبض قدمه وبسطها تارة أخرى وبدا في الانزعاج غايةً ... وهو يقول: ـ وماذا تريدين أن أكتب أيضاً؟

وبصقت الأظافر المقروضة ثم استرسلت قائلةً:

ـ اكتب إن شيئاً رهيباً حدث بعد ذلك، إذ كان زوجي قد جاوز عتبة الباب حين هاجمه أحدهم وطعنه بسكين... وقتها كنت أرضع الصغير، فاحتضنت رضيعي وجريت إلى الخارج ولمحت فجأة عشرة أشخاص أو أكثر يعدون خلفي وانحنيت على جثة زوجي لوهلة قبل أن أطلق ساقي للريح متخذة من منزل أحد أصدقائه الهنود ملاذاً وملجأً... وكان وفياً... فخبأني في المطبخ فيما استمرت الجلبة واللغط في الخارج وقتاً ليس بالقصير... وفي المساء جاء صديق زوجي... كان يحمل فانوساً وسكيناً وأخبرني خارج المنزل بأن الهنود يتربصون بكل مسلم يعثرون عليه ليقتلوه شر قتلة وبأن الجيش ـ لحسن الحظ ـ يجمع من نجا منهم داخل القلعة القديمة تمهيداً لترحيلهم إلى «باكستان»... وعندما سار بي في الشارع المهجور باتجاه منزلنا... رأيت زوجي... كان لا يزال ممدداً على الأرض جثة هامدة... إلا أنه كان على ظهره ووجهه نحو السماء. وعندما دخلت فناء الدار بصرت بجثتي ولديَّ! وجه كل منهما كان صوب الآخر فيما انتثرت أمعاؤهما بينهما! أما المنزل فقد سلب منه كل شيء! ولم يستطع «نجيب» كتم ضحكة داهمته فما تمالك ذاته:

ـ هذه بحد ذاتها نكتة! أنت مؤلفة رائعة! ـ قال ذلك واضعاً قلمه... مصفقاً ـ وجه كل منهما كان صوب الآخر فيما انتثرت أمعاؤهما بينهما هه... يا للوصف! رائع... حتى الموت... لم ينج من الوقوف على منصة التهريج! لا يتأتى ذلك إلا لسكان «دهلي» لقد قرأت نوادر التمرد كذلك لكن ذلك مدهش... وعاد يحمل قلمه كيما يستأنف الكتابة.

وامتقع لون المرأة حتى شادى شحوب الموتى وبدت شفتاها نصف المنفرجتين كفوهة بركان... وما كان ثمة دمعة في عينيها على أن نظرتها العاتبة الساخطة كانت كأنما هي قائلة له: أنت من أهل هذه المنطقة!

لا عجب إما بدت لك أمعاء الأطفال المنتثرة من بطونهم العجفاء نكتة رائعة!

وأدار القلم في يده ثم قال:

ـ هم م م ! ذكرت بأن المنزل قد تعرض للسلب!

وكان فمها كمدفع رشاش وهي تقول بانفعال:

أخذني ذلك الهندي الشهم إلى مخيم اللاجئين ثم نقلت مع غيري إلى سيادتكم... نقتات المعاناة والألم، ورياح الظلم تدفعنا في كل اتجاه يبلغنا غايتنا. بعد ثلاثة أشهر، وعندما وصلنا إلى محطة «والتون» تعين أن نمر عبر إحدى المقابر وكان مرأى ذلك غريباً نوعاً... جئنا يحدونا أمل في عيش كريم فإذا بنا نستهل ذلك بالمرور بين اللحود وساكنيها لقد خامرني إحساس داخلي محض بما سيكون، على أنه تحتم أن أعيش من أجل ولدي. وتوقفت فجأة ثم أجالت النظر فيما حولها قبل أن تهب واقفة في ذعر: ـ أين طفلي؟ سألته على أنها ما انتظرت جواباً... غادرت الغرفة من فورها.

وتناول نجيب كتاب الطرائف ثانية... وكان ثمة ضوضاء وضجة بالخارج أعقبه قدوم المرأة تحمل طفلها لتلقيه على الأرض مجدداً كلفافة أسمال.

ـ كان يأكل طنياً! هذا الـ «...» ابن الـ «....»!.

قالت ذلك ثم صفعته على خده... ونظر الرضيع إلى أمه واضعاً يده الصغيرة مكان الصفعة فيما يشبه الاحتجاج... وكأنما نطقت نظراته بـ:

«أأحرم من تناول أي شيء؟! حتى وإن كان طيناً؟!».

هذه المرة لم تتدل شفته السفلى واكتفى بالتحديق في وجه أمه بدهشة من يجهل ما يدور حوله من أحداث طاحنة... ثمة نظرة بائسة يائسة حزينة أطلت من عينيه وكأنما كانت تجأر بالشكوى أن:

«أأحرم من تناول ...!»

وشرعت المرأة تبكي بمرارة ثم حملت الطفل فاحتضنته وألصقته بصدرها ثم قالت بصوت راعش حاد:

ـ سجل لديك سيدي... إنني بائسة محرومة... لم أجد هنا مأوى في حجم مطبخ...صغير لهندي! لقد طاردني الشقاء والنحس طيلة حياتي... حتى القلة القليلة من أقاربي... تخلوا عني وشغلتهم صروف الحياة.

لقد حاولت أن أجد عملاً شريفاً يقيني وابني غائلة الجوع فساعدت في طحن الذرة على أن ذلك النزر اليسير من الدقيق الذي كان يدفع بمثابة أجر لي، لم يكن كافياً لسد رمقي ورضيعي، وعملت بعد ذلك في إحدى المهن المتواضعة قرب إحدى المقابر بيد أن العامل الأصلي عاد فجأة فطردني شر طردة... ذلك الطاغية لقد حمل ابني فدحرجه ككرة من المطاط ليسقط في قبر نصف محفور دعوت الله أن يحرمه من أعز من لديه وأن يصليه نار سقر التي لا تبقي ولا تذر!

ـ اخرسي! ـ قال لها «نجيب» ثم نظر إليها وهي تنوح وقد ضمّت في غضب قبضتها... عيناها كانتا بلا أجفان وجسدها كان يرتعش بانفعال جارف... كورقة تهزها ريح صرصر عاتية ـ وتابع: ـ تحدثي بتؤدة ورفق... يالك من ثرثارة لقد أضعت وقتي وأرهقت فكري وأطرت صوابي... وماذا تريدين أن أكتب أيضاً؟.

ـ ما تبقى سوى القليل يا سيدي! لقد ناشدت الخازن أن يمد لي يد العون لكنه

كان منشغلاً برحلة لصيد الغزلان، ولذا فلم يحفل لسماع شكواي وحاولت بعد ذلك أن ألجأ إلى مسؤول أعلى، بَيْد أن الحراس منعوني من الوصول إلى بابه. أما التسول فلا طاقة لي به...

لقد دأبت أجيال سبعة لعائلتي على التكسب بعرق جباههم فلم أشأ أن ألطخ سمعتنا بعد إذ جنى الدهر علي وكتب لي أن أرتع في حياض البؤس والفاقة! ورفعت المسكينة صوتها وهي تقول: «سيدي المسؤول الأكبر! لم يبق لي إلا أن أقول لك بأنه إذا ما قدر لك أن تأتي إلى هذا المكان فلا تنسني! امنحني ولو ما يعادل مطبخاً صغيراً لهندي. لقد بذلت دم قلبي وضحيت بكل ما أملك في سبيل هذا الاستقلال، ولقد سمعت من نساء رابطة حيّنا بأننا سنكون بعد تحرير أرضنا واستقلالنا عن الهند يداً واحدة في الشدائد، على أني لا أرى الآن شيئاً من ذلك... كلما يممت وجهي صوب قريبٍ قال ببرودة: ـ وماذا بوسعي أن أفعل؟ ما باليد حيلة! وهذا مجمله سيدي ليس له غير معنى واحد: أنك مصدر عوني الوحيد ـ بعد الله جل وعلا ـ وإن لم تردّ على خطابي هذا فسوف أحمل رضيعي وأقطع الفيافي والقفار سيراً على الأقدام حتى ألقى موكبك فأسألك! سوف أسألك...».

ـ عمّ ستسألينه؟ استفسر «نجيب» بعد أن أعيت ثرثرتها المتصلة يراعه ومداده، والشرر يتطاير من عينيه غضباً واستنكاراً كما لو كان هو صاحب الشأن المقصود.

وزاد إحكام المرأة على قبضتها فيما تمددت أوردة عنقها وبرزت، بينما حدق طفلها المتشبث بخصرها فيها بعينين فارغتين ملؤهما الخواء والبؤس.

ـ عم ستسألينه؟ أعاد السؤال!

ـ سأسأله ـ قالت بنبرة «تآمرية» ـ عن نصيبي من استقلاله المجيد.

ـ كلا! لن أكتب ذلك! قال نجيب واضعاً الورقة دافعاً المنضدة بقدمه قبل أن

يستدني كتاب الطرائف والملح مجدداً! ماذا صنعت لكي أغامر بكتابة هذا الخطاب الأهوج فأعرّض للتهلكة نفسي دون ذنب اقترفت.

إن ما أمليته عليَّ لهو كافٍ لمنحك حكماً بالسجن المؤبد يا امرأة!.

ـ ماذا .؟! ـ قالت المرأة مرخيةً قبضتها المشدودة بإحكام ـ كان عليك أن تطلعني منذ البداية على عقوبة كتابة ذلك... كيف لبائسة مثلي أن تعرف ذلك؟.

وتقدمتْ فسحبت الخطاب ومزقته نتفاً... ثم حملت طفلها وقالت: يا لي من بائسةٍ تعيسة خلت بأنه يمكن لأمثالي التعبير عما يؤرقهم من آلام وآمال.

وانطلقت مغادرةً المكان لا تلوي على شيء.

obeikandl.com